إعداد الفرد
لتأسيس مجتمع صالح

لا أكون مبالغاً اذا قلت ان هذا الموضوع يشغل في الوقت الحاضر جميع الأذهان . بل سيظل شاغلاً لها ما دام الفرد عندنا على هذا الوضع وفي هذه الحال التي نرى . وان كنت في ريب من هذا ، فتسمّع الى الناس في الطريق وفي غير الطريق . في مجتمعاتهم الخاصة والعامة ، فاذا يقولون ؟ انهم يسبون هذا الزمن ويلعنون الناس . ويستجيرون بالله من فساد الأخلاق وخراب الذمم ، والكل تقريباً في تشاؤم وقليل من تراه متفائلاً ينتظر صلاح الحال . وهذه الثورة الفكرية هي في نظري أول مراتب الكمال . فما دمنا نطمح إلى الرقي وما دامت مصر ترى أن تساهم بنصيب في رفع المستوى الانساني ، ينبغي أن نعمل جادين في سبيل إيجاد فرد قوي يتكوّن منه مجتمع صالح لتلك الحياة الجديدة التي ستخلقها لنا هذه الحرب العوس . ينبغي ان نعمل حذرين مما لا يتفق فيها مع ما وراءه من عرف صحيح .

وسأبني كلمتي في هذا الموضوع على أساسين اثنين : —

الأول : إن الحضارات كلها تقوم على الفرد ، بمعنى ان العلم الذي أوجد الطائرة أو المذياع أو الكهرباء ، هو نتيجة عمل الفرد أولاً ، لا عمل جماعة . وعلى ذلك يجب أن تقوم الدولة على خدمة الفرد ، وأن تسير الأوضاع فيها على ذلك لا على نظم من مقتضاها أن يضيع الفرد في الدولة .

الثاني : ان سعادة الفرد خاضعة لظروف والأحوال التي تحيط به ، لا أن سعادته خاضعة لاستعداده النفسي فحسب ، كما يذهب بعض فلاسفة الأخلاق . وعلى هذا سأطرح من حسابي من يدين بهذا المذهب الأخير ، لأنهم أقلية لا يصح أن نأخذ بهم حكماً عاماً .

ولننظر الآن الى الواقع من أمر الفرد في مجتمعنا الحالي ، وذلك بالنظر إلى ما يحيط به من حيث الصحة والمرض والغنى والفقر ، والعلم والجهل . ثم لننظر فيما يجب أن يكون عليه الفرد لتأسيس مجتمع صالح لهذه الحياة الجديدة التي ستقابله حتماً بعد أن تضع هذه الحرب أوزارها .

فهل الظروف المحيطة بالفرد عندنا الآن ترضي عنها عزتنا القومية وماضينا المجيد ؟ وهل من شأنها أن يشعر الانسان معها في الأغلب الأعم ، بحسّ مريح أو بحسّ مؤلم ؟ إذا نظرنا إليها من حيث الصحة والمرض رأينا عجباً . فلقد أثبت المغفور له المرحوم عبد الواحد الوكيل بك في محاضرة له بناها عن احصاء سنة ١٩٣٨ أن في مصر من الأمراض ما لو قسم على عدد السكان لخرج كل فرد بثلاثة أمراض . وأثبت أن مصر في وفيات الأطفال متأخرة حتى عن الهند . وأن ٧٥ ٪ من عدد السكان مصابون بمرض البلهارسيا و٥٠ ٪ بالانكلستوما . ومثل هذه النسبة الأخيرة مصابون بالديدان المعوية . وأحسبني من هذه الناحية لست في حاجة الى الكلام بعد هذه الأرقام وبعد هذه النتيجة التي تعتبر وصمة في جبين الأمة بأسرها . فهذه الأمراض تحط من قيمة الفرد ماديًّا ومعنويًّا ، فهي من ناحية لا تمكنه من الموازنة بين انتاجه واستهلاكه ، ومن ناحية تجعله في شذوذ خلقي بحيث لا يستريح معه غيره في عشرة أو معاملة . وكل ذلك وبال وخسران .

***

وإذا نظرنا في واقع الأمر مع هذا الفرد من جهة الغنى والفقر رأينا حالاً ليست بأحسن مما قد رأينا . ذلك أن النظام الاقتصادي في هذا البلد قائم على أساس ليس من شأنه أن يحقق للفرد حياة سعيدة . وإلا فأي نظام ذلك الذي يقضي بأن يأخذ ٩٣ ٪ من الملاك ٢٠ ٪ من الأراضي الزراعية ، ثم يقضي بالباقي وهو ٨٠ ٪ من مجموع الأراضي لـ ٧ ٪ من عدد الملاك . ولست أقصد هنا أن نسلب مالكاً حقاً مكتسباً . فانا لو قسمنا الأراضي على الأفراد بالتساوي لما خرج الفرد الواحد بعشر قراريط . بل أقصد أن أقول إن هذا النظام نشأ عنه بعد النسبة بين طبقات الشعب . فمن يريد أن يعد الفرد لمجتمع صالح — والكل طبعاً يريد — عليه أن يعمل أولاً وقبل كل شيء على التقريب بين طبقات الشعب ، ويكون ذلك من طريق الضرائب التصاعدية بحيث يعفى منها الفقراء وصغار الموظفين ، على أن يتحمل الضريبة كبار الأغنياء بنسبة تتصاعد بزيادة الثروة . هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى لا يجوز أن تبيح الدولة لزيد من الناس أن يملك من الأرض القابلة للاصلاح من غير أن تشترط عليه اصلاحها في زمن محدود . فانا نرى فلاناً من الناس يملك من هذه الأرض ما يزيد على الألف ، ثم يتركها للزمن على حد تعبيره من غير أن يجري فيها إصلاحاً يذكر ، ويجاوره من الأسر ما لو وزعت عليهم هذه الأرض ملكيات صغيرة ، لأصلحوها واستثمروها وعادت عليهم بالخير وعلى المجتمع بالأمن .

ننظر بعد ذلك الى الظروف المحيطة بالفرد عندنا من حيث العلم والجهل . وهنا سوف لا أنظر إليها من جهة الكم أو الكيف ، بل سأنظر إلى النتيجة التي يخرج الفرد بها عندنا

من هذا التعليم . فقديماً قالوا : « القدم يدل على المسير » فهل واقع الأمر نتيجة لهذا التعليم، أن الفرد يخرج من هذه المرحلة مزوداً بالعادات والآداب العامة التي يكون لها أثر صالح في سلوكه الشخصي ، يقربه من الفضيلة ويبعده عن الرذيلة ؟

هل يخرج الفرد من هذا التعليم قادراً على أن يشق لنفسه طريقاً قويماً في الحياة ؟ هل يخرج الفرد من هذا التعليم مزوداً بالاطلاع والبحث الشخصي بعد المدرسة ؟ هل خلق هذا التعليم للفرد عقلية ممتازة بالنظام الذي يظهر أثره في حياة الفرد والأسرة ؟ هل هدانا هذا التعليم إلى حل مشاكلنا الاجتماعية ؟ وهل أخرج لنا هذا التعليم فرداً مستقلاً في عمله حرًّا في رأيه ذا شخصية محترمة له إرادة وفكر لا يخجل ولا يتردد ولا يخاف من مسايرة نظرائه في المجتمعات الطبية ؟ الأحوال والأرقام تنطق بالعكس . فمثلاً كان عدد المتعطلين عندنا في سنة (١٩٢٧) ٢١٦٢٤٣ أتدرون كم وصلوا في تعداد سنة ١٩٣٧ ؟ إنهم وصلوا ٤٨٦ ٤٧٨ أي إلى الضعف تقريباً، وفي كم سنة؟ في عشر سنوات. وهذه نتيجة ليس من شك في أنها تقلق بال الغيورين على شؤون هذا البلد .

أنظروا إلى المرافق الحيوية في البلاد تروها ليست في أيدينا ولو كان توجيه التعليم عندنا حسناً لما كان هذا . نحن لا نزال عيالاً على غيرنا حتى في السعاد البكباوي ، بالرغم من أن بلادنا زراعية . أنت حينما تمشي في شوارع القاهرة الكبرى تكاد تسلم بأنك غريب في بلدك . أين نحن في هذه الناحية إذاً، ممن يحاولون الآن إشباع الصم بوساطة الأسنان؟ وأين نحن ممن يحاولون إخضاع الطبيعة لتجمع لهم غيومها في مكان واحد وتفرغ ما بها فيه . إنهم الآن يحاولون اختزان أشعة الشمس لما رأوا أن مادة الوقود يخشى من نفادها في هذه الحرب الضروس التي لا تبقي ولا تذر . الحق أن هذه الناحية هي الأخرى تحتاج إلى وضع جديد يلائم روح العصر، ويتمشى مع ما ورثنا من عرف صحيح .

***

نستطيع إذاً بعد هذا العرض السريع أن نقول إن الظروف المحيطة بالفرد عندنا ليس من شأنها أن توجد فرداً سعيداً يحيا حياة فاضلة — وطبعاً نفتح باب الاستثناء لأقلية، هي في الواقع مثل الفرد الفاضل عندنا بلا نزاع — لذلك لا نكون مبالغين إذا قلنا إن الأفراد عندنا الآن يحيون حياة مبعثرة مرتبكة مضطربة ليس فيها انسجام حتى بين أعضاء الأسرة الواحدة . بل هناك خصام وتنازع وشقاق وفوضى جرَّتها علينا هذه الظروف المحيطة بالفرد اترك الأسرة وانظر إلى نفسك في خارج بيتك وفي عملك، أترى في عملك المثالية ؟ كلا ، بل

هناك حقد وحسد ودس ونفاق وكذب . لماذا ؟ لأن الظروف المحيطة بنا كوّنتنا على هذا الوضع . هذا ولأن العدل الاجتماعي لم يُستَنفَد بعد بكل ما تحمل هذه الكلمة من مدلول . لذلك لا تعجب إذا أنت قد رأيت الكذاب الذي يشبع عنك السوء لحاجة في نفسه . ولا تعجب إذا أنت قد رأيت الزاني الذي يشبع شهوته على حسابك . وفي النهاية لا تعجب إذا أنت قد رأيت مجتمعاً مريضاً . وما دمنا نعترف للفرد بحق الحياة ، فالطريق إذاً لإعداده إعداداً حسناً أحد أمرين اثنين لا ثالث لهما : إما أن نمده شريراً خبيثاً جباناً سارقاً منافقاً ليلائم بينه وبين بيئته ، ويكيف نفسه وفق هذه الظروف المحيطة به ليعيش كما تدفعه الغريزة . وهذا طبعاً لا يرضى منه دين ، ولا ترضى عنه فضيلة ، بل ولا يرضى عنه عقل سليم ، بقطع النظر عن الدين والفضيلة ؛ فالفسق مثلاً لو لم يحرمه الدين لحرمته الفطرة السليمة . وإما أن نحسّن للفرد هذه الظروف المحيطة به ، وهذا هو الاصلاح من بابه . أما أن نترك الظروف تنخر في عظام الافراد ونتوسمهم ونطلب منهم بالكلام والكلام فحسب ، أن يكوّنوا لنا مجتمعاً صالحاً ، فهذا الفالة لا مثل ، ومنطق معكوس ، ووضع للشيء في غير موضعه .

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا مضرٌ كوضع السيف في موضع الندى

وإلا فكيف تطلب من الفرد ألاّ يسرق وأنت تسرقه . كيف تطلب منه أن يعدل وأنت تظلمه . وكيف تطلب منه أن يزهد في الدنيا وأنت منها متخوم . علموا الافراد معنى العدل برفع الظلم عنهم . علموهم معنى الحرية برفع الاستبداد عنهم . علموهم معنى الصدق بعدم الكذب عليهم . وما أحوجنا في هذه الناحية الى القدوة الصالحة وضرب الأمثال حين توجيه الأفراد .

***

ولتحسين هذه الظروف المحيطة بالفرد ، ينبغي أن نتجه الى التجارة والصناعة بجوار الزراعة وأن نجعل التربية هي الغرض من التعليم ، لا مجرد حشو الذهن بمعلومات فارغة لا تنفع الانسان حين يخرج الى معترك الحياة . والآن وإلى أن نحسن هذه الظروف ، ينبغي أن نعلن الحرب على أنفسنا ، فليتعرّف كل منا عيوب نفسه ، وليحاربها بغير هوادة حتى يردها الى الصراط السوي ، ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه .

منصور رجب
المدرس في كلية أصول الدين